الثورة الاتصالية والإعلامية المعاصرة:

تحول في بنية المجتمعات الحضرية

تمهيد: منعطف تاريخي في مسيرة التطور البشري

تشكل الثورة الاتصالية والإعلامية المعاصرة منعطفاً تاريخياً في مسيرة التطور البشري، لا يقل أهمية عن الثورة الزراعية والصناعية، بل ربما يفوقهما عمقاً وتأثيراً. فبينما حققت الثورتان السابقتان تحولات جذرية في نمط الإنتاج المادي، تمثل الثورة الاتصالية الحالية تحولاً جذرياً في نمط إنتاج المعرفة وتداولها، مما أسفر عن إعادة هندسة شاملة للعلاقات الاجتماعية والأنساق الثقافية والبنى الاقتصادية في المجتمعات الحضرية.

تشير إحصائيات البنك الدولي إلى أن نسبة سكان الحضر في العالم ارتفعت من 30% في عام 1950 إلى أكثر من 56% في عام 2021، ومن المتوقع أن تصل إلى 68% بحلول عام 2050. وقد صاحب هذا التحضر تسارع غير مسبوق في انتشار التكنولوجيا الرقمية، حيث يقدر الاتحاد الدولي للاتصالات أن عدد مستخدمي الإنترنت worldwide تجاوز 5.3 مليار نسمة في عام 2023، مقارنة بـ 400 مليون مستخدم فقط في عام 2000.

أولاً: التشريح السوسيولوجي للتحولات الاجتماعية

1. تفكيك وإعادة تركيب النسيج الاجتماعي

يشهد النسيج الاجتماعي في المدن الحديثة عملية تفكيك وإعادة تركيب غير مسبوقة، حيث تتحول العلاقات الاجتماعية من نمط "المجتمعات المتجاورة" إلى "المجتمعات المتخاطبة" كما نظر لها عالم الاجتماع الألماني فرديناند تونيس. فبينما كانت العلاقات في السابق تقوم على أساس القرب الجغرافي والقرابات الدموية، أصبحت تقوم اليوم على أساس التقارب الفكري والمصالح المشتركة، بغض النظر عن الموقع الجغرافي.

تشير دراسة أجرتها "بيو ريسيرش سنتر" في 2023 إلى أن 64% من سكان المدن في الدول المتقدمة يعتبرون أن صداقاتهم الافتراضية لا تقل أهمية عن صداقاتهم في العالم المادي. كما أظهرت الدراسة أن 48% من سكان المدن الكبرى يعتمدون على المنصات الرقمية للتعرف على شركاء حياتهم، مقارنة بـ 12% فقط في عام 2005.

2. تحول ديناميكيات الأسرة والتربية

أدى انتشار التكنولوجيا الرقمية إلى إعادة تشكيل ديناميكيات الأسرة، حيث أشارت دراسة لجامعة هارفارد عام 2022 إلى أن الأسرة الحضرية المتوسطة تقضي حوالي 6.5 ساعات يومياً في التفاعل مع الشاشات المختلفة، بينما لا تتجاوز مدة التفاعل المباشر بين أفرادها 1.5 ساعة يومياً. هذا التحول يذكرنا بنظرية "الميديا إيكولوجي" التي صاغها نيل بوستمان، والتي تحذر من أن الوسيط التكنولوجي لا يغير فقط طريقة التواصل، بل يغير طبيعة العلاقات الإنسانية ذاتها.

3. بروز أنماط تنظيمية جديدة

تشهد المدن الحديثة تحولاً من النموذج الهرمي في التنظيم إلى النموذج الشبكي، وهو ما يتجلى في صعود ما يسمى بـ"التنظيمات السائلة"[1] التي تتميز بالمرونة واللامركزية. فبحسب تقرير المنتدى الاقتصادي العالمي 2023، فإن 35% من القوى العاملة في المدن الكبرى تعمل عن بعد بشكل كلي أو جزئي، بينما يعمل 12% عبر منصات العمل الحر.

ثانياً: التحولات الثقافية: من المركزية إلى التعددية

1. تفكيك المركزيات الثقافية

تشهد المجتمعات الحضرية تحولاً من النموذج الثقافي المركزي إلى النموذج التعددي، حيث لم تعد النخب التقليدية (المثقفون، الإعلام الرئيسي، المؤسسات التعليمية) تحتكر إنتاج الثقافة وتوجيه الرأي العام. فبحسب إحصائيات "هوتسويت" لعام 2023، فإن 67% من سكان المدن في الفئة العمرية 18-35 سنة يعتمدون على منصات التواصل الاجتماعي كمصدر رئيسي للأخبار والمحتوى الثقافي، مقارنة بـ 28% فقط يعتمدون على الوسائل الإعلامية التقليدية.

2. ولادة "المواطن الناشر"

أفرزت الثورة الاتصالية ما يمكن تسميته "بالمواطن الناشر"، وهو الفرد العادي الذي أصبح قادراً على إنتاج المحتوى الثقافي والإعلامي ونشره دون وسيط. تشير إحصائيات "يوتيوب" إلى تحميل أكثر من 500 ساعة من المحتوى الجديد كل دقيقة، بينما ينشر مستخدمو "تيك توك" أكثر من 34 مليون فيديو يومياً.

---

[1] صاغها.ا عالم الاجتماع البولندي **زيجمونت باومان**، حيث وصف تحول المجتمعات الحديثة من حالات الصلابة والثبات إلى حالات السيولة والتدفق المستمر

هذا التحول يذكرنا بمقولة الفيلسوف الكندي مارشال ماكلوهان: "الوسيط هو الرسالة"، حيث لم يعد المحتوى هو الأهم بل طبيعة الوسيط وآليات تداوله.

3. العولمة والهوية: صراع وتفاعل

أدت الثورة الاتصالية إلى تسارع وتيرة العولمة الثقافية، لكنها في الوقت نفسه أتاحت مساحات للحفاظ على الخصوصيات الثقافية ونشرها. فبينما تشير دراسات اليونسكو إلى أن 80% من المحتوى على الإنترنت في عام 2000 كان باللغة الإنجليزية، انخفضت هذه النسبة إلى 52% في عام 2023، مع نمو ملحوظ للمحتوى باللغات المحلية.

ثالثاً: التحولات الاقتصادية: ميلاد البراديغم الاقتصادي الجديد

1. اقتصاد المعرفة والتحول الرقمي

تشير بيانات البنك الدولي إلى أن مساهمة اقتصاد المعرفة في الناتج المحلي الإجمالي العالمي ارتفعت من 45% في عام 2000 إلى 67% في عام 2023. كما تشير تقديرات "ستاتيستا" إلى أن حجم الاقتصاد الرقمي العالمي سيصل إلى 23 تريليون دولار بحلول عام 2025، مقارنة بـ 11.5 تريليون دولار في عام 2015.

2. الثورة في أنماط الإنتاج والاستهلاك

أدت الثورة الاتصالية إلى تحول جذري في أنماط الإنتاج والاستهلاك، حيث انتقلنا من اقتصاد الحجم إلى اقتصاد التخصيص، ومن الإنتاج الكمي إلى الإنتاج النوعي الموجّه. تشير بيانات "ماكنزي" إلى أن 35% من مشتريات سكان المدن تتم عبر المنصات الرقمية، بينما يعتمد 42% على التوصيات الآلية في قرارات الشراء.

3. الاقتصاد التشاركي والمنصات الرقمية

شهد العقد الماضي صعود الاقتصاد التشاركي، حيث تقدر قيمة هذا القطاع بحوالي 335 مليار دولار في عام 2023، مع توقعات بوصوله إلى 1.5 تريليون دولار بحلول 2030. وقد غير هذا القطاع مفاهيم الملكية والاستخدام، حيث أصبح الوصول إلى الخدمات أهم من امتلاك الأصول، كما تنبأ بذلك جيريمي ريفكين في كتابه "عصر الوصول."

رابعاً: المدينة الذكية: تجسيد للتحول الرقمي الشامل

1. البنى التحتية الذكية

تشهد المدن الحديثة تحولاً جذرياً في بنيتها التحتية، حيث تقدر "غراند فيو ريسيرش" أن سوق المدن الذكية سيصل إلى 3.48 تريليون دولار بحلول عام 2030. وتشمل هذه البنى التحتية أنظمة النقل الذكية التي تقلل زمن التنقل بنسبة 25%، والشبكات الذكية للطاقة التي تخفض الاستهلاك بنسبة 30%، وأنظمة إدارة المياه التي تقلل الفاقد بنسبة 15%.

2. الحوكمة الرقمية والمشاركة المدنية

أدت الثورة الاتصالية إلى تحول جذري في نمط الحوكمة الحضرية، حيث أتاحت تقنيات مثل "إنترنت الأشياء" و"البيانات الضخمة" و"الذكاء الاصطناعي" إمكانية إدارة المدن بشكل أكثر كفاءة. تشير بيانات "اليونان" إلى أن 68% من المدن الكبرى في العالم تطبق أنظمة للحوكمة الرقمية، بينما تستخدم 45% منصات للمشاركة المدنية الرقمية.

3. إعادة تشكيل الفضاء الحضري

أدت الثورة الاتصالية إلى إعادة تشكيل الفضاء الحضري، حيث تتحول المدن من فضاءات فيزيائية بحتة إلى فضاءات هجينة (فيزيائية-رقمية). تشير دراسة لمعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا إلى أن 72% من سكان المدن يستخدمون تطبيقات الخرائط الرقمية بشكل يومي، بينما يعتمد 58% على أنظمة الواقع المعزز في التنقل والتعلم والتسوق.

خامساً: التحديات والآفاق: نحو مستقبل حضري أكثر استدامة وعدالة

1. الفجوة الرقمية وتعميق اللامساواة

رغم المكاسب الكبيرة للثورة الاتصالية، إلا أنها أسفرت عن تحديات جسيمة، أبرزها تعميق الفجوة الرقمية. فبحسب بيانات الاتحاد الدولي للاتصالات، فإن 96% من سكان الدول المتقدمة يستخدمون الإنترنت، بينما تنخفض هذه النسبة إلى 47% في الدول الأقل نمواً. كما أن الفجوة الرقمية داخل المدن نفسها تشكل تحدياً كبيراً، حيث تشير دراسات إلى أن 32% من سكان الأحياء الفقيرة في المدن الكبرى لا يستطيعون الوصول لخدمات الإنترنت عالية الجودة.

2. الخصوصية والأمن الرقمي

تشكل قضايا الخصوصية والأمن الرقمي تحدياً كبيراً، حيث تشير "سايبر سيكيوريتي فينتشرز" إلى تعرض 68% من المدن الذكية لهجمات إلكترونية في عام 2022، مع خسائر تقدر بـ6 تريليونات دولار على مستوى العالم. هذا يذكرنا بتحذير الفيلسوف السلوفيني سلافوي جيجيك من أن "التكنولوجيا التي تمنحنا الحرية هي نفسها التي تمكن من مراقبتنا."

3. الاستقطاب الاجتماعي والصوامع المعلوماتية

أدت خوارزميات وسائل التواصل الاجتماعي إلى خلق ما يسمى "بالصوامع المعلوماتية"، حيث يعيش الأفراد في فقاعات معلوماتية معزولة. تشير دراسة لجامعة ستانفورد إلى أن 65% من مستخدمي وسائل التواصل الاجتماعي يتعرضون فقط للمحتوى الذي يتوافق مع آرائهم المسبقة، مما يعزز الاستقطاب الاجتماعي ويضعف الحوار المجتمعي.

خاتمة: نحو رؤية استشرافية للمدينة الرقمية المتعاقدة

تشكل الثورة الاتصالية والإعلامية منعطفاً تاريخياً يتطلب تطوير "عقد اجتماعي رقمي جديد" يحقق التوازن بين الابتكار والقيم الإنسانية، بين الكفاءة والعدالة، بين الخصوصية والشفافية. فكما قال الفيلسوف الفرنسي بيير ليفي: "لا يمكننا التنبؤ بالمستقبل، لكننا نستطيع اختراعه."

إن مستقبل المدن الذكية لا يكمن في التكنولوجيا بحد ذاتها، بل في قدرتها على خدمة الإنسان وتعزيز قيم العدالة والاستدامة والمشاركة. وهذا يتطلب تطوير أطر تشريعية مرنة، واستثماراً في رأس المال البشري، وتبنياً لنموذج حوكمة تشاركي، يجعل من المدن فضاءات أكثر إنسانية وشمولية واستدامة للأجيال القادمة.